الاستشهاد بشعر المولدين والمعاصرين في المعجم الكبير

د. أحمد بن محمد الضبيب
جامعة الملك سود ـ الرياض

1 - تمهيد :

يعد المعجم الكبير الذي بدأ مجمع اللغة العربية في القاهرة بالتحضير له في الخمسينيات الميلادية، ثم صدر أول أجزائه سنة 1970م أهم عمل معجمي لغوي شامل تقوم به مؤسسة علمية في البلاد العربية. ومنذ ذلك الحين صدرت من المعجم خمسة أجزاء آخرها ضم حرف الحاء الذي نشره المجمع سنة 1421هـ/2000م.

لقد هدف هذا المعجم -من الناحية اللغوية- إلى تلبية حاجة الإنسان المعاصر من حيث الشمول اللغوي ففسح المجال للغة في جميع عصورها وحاول استيعاب المفردات والاستعمالات التي تمس إليها الحاجة في هذا العصر، ولهذا امتدت النظرة فيه إلى عصور اللغة جميعها منذ عصور الاحتجاج اللغوي إلى عصرنا الحاضر، متجاوزا بذلك ما سمع عن العرب إلى ما ورد في كتابات المولدين بل المعاصرين، فقد استقر رأي المجمع -كما يقول رئيسه في مقدمة الجزء الأول- «على أن اللغة العربية ليست

مقصورة على ما جاء في المعجمات وحدها، بل لها مظان أخرى يجب تتبعها والأخذ عنها، وفي مقدمتها كتب الأدب والعلم، ومن الخطأ أن يرفض لفظ لا لسبب إلا أنه لم يرد في معجم لغوي»[1] كما رأى: «أن اللغة كل متصل الأجزاء يرتبط حاضره بماضيه... ومن الظلم أن نقف بها عند حدود معينة، وينبغي أن يعبر المعجم الحديث عن عصور اللغة جميعها، وأن يستشهد فيه بالقديم والحديث على السواء»[2].

إن هذا الموقف اللغوي يتماشى مع التطور اللغوي الذي تمر به اللغة، وهو منطقي إذا احتفظ لكل عصر بالسمات التي أدخلها على المفردات أو التراكيب -من حيث الصوتيات والبنية والدلالة- دون أن تحملها عبئا لا تستطيع حمله بنقلها من سياقها المعرفي أو الزماني إلى سياق آخر لاتتحمّله. ولتحقيق ذلك أكثر المعجم الكبير من الاستشهاد بأشعار لشعراء جاءوا بعد عصر الاحتجاجْ اللغوي، وتناقش هذه الورقة طريقة الاستشهاد بهذه الأشعار، وهل حققت هدفا معينا يتوخاه المعجم أو يتوقع منه، بحيث دلت على استعمال جديد للألفاظ، أو تطور لمعنى من المعاني على أيدي من استعملها من الشعراء؟

يمكن أن تعد هذه الدراسة دراسة استطلاعية إذ تقتصر على الجزء الأول من «المعجم الكبير» وهو يشتمل على المادة اللغوية الخاصة بحرف الهمزة، ويقع هذا الجزء في 700 صفحة، ولكنها -أي الدراسة- تعطي، في الوقت نفسه، مؤشرا على القيمة المعجمية لهذه الشواهد. كما قد تفيد في تسديد ما تبقى من هذا العمل الجبار الذي يؤمل منه نفع كبير. والذي

يمثل جهدا كبيرا مشكورا تنهض به منذ عقود من السنين مؤسسة لغوية عريقة.

كان موضوع الشواهد اللغوية والنحوية من الموضوعات المهمة التي تدارسها علماؤنا القدماء ومرت بمراحل عديدة وفقا لتصور كل عالم منهم. وكان الهدف من هذه الدراسات الحفاظ على نقاء اللغة العربية من أن يشوبها ما يمكن أن يغير معالمها أو يبتعد بها عن المنبع سواء في الصوت أو البناء أو الدلالة. ولذلك فقد تشدّد الرواد القدماء في الاستشهاد بالشعر المعاصر لهم أو القريب من عصرهم فنجد علماء الطبقة الأولى من اللغويين كأبي عمرو بن العلاء، وعبد الله بن إسحاق الحضرمي، والحسن البصري، وعبد الله بن شبرمة يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم[3]، ويروى عن الأصمعي قوله المشهور الذي ذكر فيه أنه جلس إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج فما سمعه يحتج ببيت إسلامي[4]. غير أن هذه النظرة المتشددة لم تسد طويلا،..... من العلماء يجيز الاستشهاد بشعر الإسلاميين، ويمنع الاستشهاد بشعر المولدين أو المحدثين كبشار وأبي نواس وابن المعتز وغيرهم، حتى يأتي الزمخشري، في القرن السادس الهجري، فيخرق القاعدة بالاستشهاد بشعر أبي تمام، عند الكلام على تفسير قوله تعالى ﴿ **وإذا أظلم عليهم قاموا** ﴾ (البقرة: 20)، محتجا بورود الفعل أظلم متعديا في شعر حبيب بن أوس، معقبا على ذلك بقوله: «وهو وإن كان محدّثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله

بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه» [5] ومع ذلك فقد اعترض عليه العلماء بأن «قبول الرواية مبني على الضبط والوثوق، واعتبار القول والاستشهاد به مبني على معرفة الأوضاع اللغوية، والإحاطة بقوانينها، ومن البين أن إتقان الرواية لا يستلزم إتقان الدراية، فلا يلزم من تصديق العلماء إيّاه فيما جمعه من الحماسة من أشعار من يستشهد بأقوالهم أن يكون جميع ما في شعره مسموعا منهم أو مستنبطا من القوانين المأخوذة من استعمالاتهم»[6].

ولعل ابن بري (ت سنة 582 هـ) من أكثر اللغويين الذين استشهدوا بشعر المتنبي، ويعزى إليه ما ورد في (اللسان) من استشهاد بشعره. فقد ورد شعر لأبي الطيب في ثمانية مواضع في (اللسان) سبعة منها نقلها عن حواشي ابن بري على الصحاح، وواحد لم يبين مصدره فيه وهو استشهاده بقول أبي الطيب:

وبهم فخر كل من نطق الضـــاد وعوذ الجاني وغوث طريد

على أن الضاد للعرب خاصة. ولا يبعد أن يكون في نسخة من حواشي ابن بري لم تصل إلينا، إذ أن المادة المتعلقة به غير موجودة في النسخة المطبوعة من كتاب ابن بري وهي على كل حال نسخة ناقصة.

وقد أورد ابن بري شواهد في كتابه لمولدين آخرين كأبي الهندي (ت 188هـ) والعتابي (ت 208هـ) وبشر بن المعتمر (ت 210هـ) وأبي علي بن البصير (255هـ) وأبي العلاء المعري (ت 449 هـ) وغيرهم.

ونجد الاستشهاد بشعر المولدين ومن أتى بعدهم من الشعراء واضحا عند السيد محمد مرتضى الزبيدي في (تاج العروس)[7].

غير أن الملاحظ أن علماءنا القدماء وإن ذكروا أبيات المولدين في كتبهم فإنهم لا يستدلون بها على صحة اللغة بقدر ما يفسرون ما جاء فيها على ما سمع عن العرب، أو ما أورده العلماء القدماء، ولذلك فإننا كثيرا ما نرى ابن بري يقدم لهذه الشواهد بعد إيراد الرأي اللغوي بقوله: اوعليه قول المتنبي ..«أو نحو ذلك»[8] فاستعمال أبي الطيب يتوافق مع المسموع، لكنه ليس دليلا على صحته.

وعنصر آخر يمكن أن يلاحظه الدارس لاستشهادات القدماء بأشعار المحدثين وهو إيراد أبيات العلماء من الشعراء، وقد نصّ الزمخشري في تسويغه للاستشهاد بشعر أبي تمام بكونه عالما باللغة وبعدالته وذلك بقوله: «وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه...»[9]. ونجد إشارات متعددة إلى علم هؤلاء الشعراء باللغة، فالمتنبي يسأله أبو علي الفارسي: كم لنا من الجموع على وزن فِعلى؟ فيقول المتنبي سريعا: حِجْلى وظِرْبى، قال الفارسي: ففتشت كتب اللغة ثلاث ليال فلم أجد لهما ثالثا»[10].

ويذاكره أبو علي فيما جاء على: «فِعْيَول» فيذكر أبو علي ما يعرفه منها فيقول المتنبي و«كِسْيَون» وهو موضع فقال أبو علي من حكاه؟ فسكت أبو الطيب، قال في «سفر السعادة»: «والناس يقولون: «كِسْيَوْن» بكسر الكاف وضم الياء، والذي قال أبو الطيب أصوب»[11]. ويسجل ابن بري

سعة علم أبي العلاء المعري بمصادر اللغة، فبعد أن ينتقد الجوهري لعدم ذكره شيئا في فصل الياء من باب الحاء يستدرك عليه مادة، يُوح الشمس، قال: وكان ابن الأنباري يقول: هو بُوح -بالباء- وهو تصحيف منه، وذكره أبو علي الفارسي في «الحلبيات» عن المبرد بالياء المعجمة باثنتين، وكذلك ذكره أبو العلاء أحمد بن سليمان (المعري) في شعره فقال:

ويوشع رد يوحاً بعض يوم وأنت متى سَفَرْت رددت يوحا

ولما دخل بغداد اعتُرض عليه في هذا البيت، وقيل له: صحفته، وإنّما هو بُوح بالياء واحتجوا عليه بكتاب «الألفاظ» لابن السكّيت، فقال لهم: هذه النسخ التي بأيديكم غيّرها شيوخكم، ولكن أخرجوا النسخ العتيقة، فأخرجوا النسخ العتيقة فوجدوها كما ذكر أبو العلاء»[12].

وينتصر ابن بري لبشار بن برد فيقول في مادة (برأ): «لم يذكر (أي الجوهري) برأت أبرُو -بالضم في المستقبل- وقد ذكره سيبويه، وأبو عثمان المازني وغيرهما من البصريين، وإنما ذكرت هذا لأن بعضهم لحَّن بشار بن برد في قوله:

نفر الحي من بكائي فقالوا فز بصبر لعل عينك تبرُو

مسّه من صدود عبدة ضر فبنات الفؤاد ما تستقر[13]

وهكذا كان الاستشهاد على صحة اللغة عند علمائنا القدماء لا يتم إلا بإيراد أشعار القدماء من المنتمين إلى الطبقات الثلاث المتقدمة، وهي طبقة الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين. أما المولّدون والمحدثون فهم وإن

استأنسوا بأشعارهم إلا أنهم لا يجعلونها عمدة في ذلك. ولا شك أن مسلكهم في ذلك يدل على التزام بمنهج سليم، ينم عن إدراك لما يعتور اللغة أثناء مسيرها من تغير أو تبدل سواء في الأصوات أو البنية أو الدلالة، فكيف يستدلون على شرح بيت جاهلي بقول شاعر محدث، قد يكون أصاب التركيب أو اللفظ لديه تغيير بفعل مرور الزمن؟ وكيف يفسرون القرآن بناء على معطيات لغوية متأخرة عن وقت نزوله بأكثر من مئتي عام؟

ذلك موقف يمكن أن نفهم دواعيه، لكنهم بحفاظهم على نقاء اللغة استبعدوا كثيرا من الألفاظ التي استجدّت بفعل التطور اللغوي، واستعملها العلماء والشعراء والكتاب في أعمالهم الفكرية، ولو سجّلوها لأضافوا إلى اللغة إضافات جلي. غير أننا نلاحظ أن المتأخرين منهم كالفيروزأبادي في (القاموس) والسيد محمد مرتضى الزبيدي في (تاج العروس) قد سجلوا كثيرا من الألفاظ المستعملة في غير عصور الاحتجاج، ولكن ذلك جاء في زمن متأخر مما استوجب التفكير بتأليف معجم لغوي تأريخي.

2 – الدراسة

لم يكن من أهداف «المعجم الكبير» أن يسد مسد المعجم التاريخي العربي الذي يتطلع إليه الجميع، لكن المعجم وهو يعبر عن عصور اللغة جميعها –كما نص على ذلك رئيس المجمع في مقدمته[14] –نراه يقترب كثيرا من هذه المهمة، وقد أشار منهج المعجم إلى ذلك من طرف خفي

فجاء فيه: «واستشهد بالشعر القديم والحديث تأكيدا لوحدة اللغة وتكاملها، وغرسا لنواة في سبيل معجم تاريخي»[15].

وتأسيسا على هذا الكلام فإن من المتوقع أن تكون الشواهد الشعرية التي وردت في (المعجم الكبير) ممثلة للغة في عصور من قالوها، فهل هي كذلك؟ وبعبارة أخرى هل كان المنهج واضحا في أذهان مؤلفي المعجم بحيث اختيرت الشواهد لتعطي دلائل توثيقية للكلمات أو الاستعمالات اللغوية؟ وهل كانت لهذه الشواهد إضافات معجمية حقيقية أم أنها كانت ذات إضافات محدودة ؟ ذلك ما نحاول أن نجيب عليه في هذه الورقة.

استشهد في الجزء الأول من هذا المعجم بخمسين شاعرا من المولدين والمعاصرين، بلغ عدد الشواهد التي نسبت إليهم فيه 187 شاهدا، وتبين القائمة الآتية أسماء هؤلاء الشعراء وعدد مرات الاستشهاد لكل منهم:

الشاعر	عدد مرات الاستشهاد
أبو تمام	29
المتنبي	22
البحتري	20
أبو العلاء المعري	20
ابن الرومي	16
أبو فراس الحمداني	12

البهاء زهير	6
محمود سامي البارودي	5
ابن المعتز	4
بشار بن برد	3
مهيار الديلمي	3
الحسين بن الضحاك	3
أحمد بن المعذل	2
أبو العباس الصفري	2
الشريف الرضي	2
مسكين الدارمي	2
مسلم بن الوليد	2
أحمد شوقي	2
حافظ إبراهيم	2

واستشهد لكل واحد من الشعراء الآتية أسماؤهم بشاهد واحد: دعبل الخزاعي، سديف، القناني، ابن أبي أمية الكاتب، صالح بن عبد القدوس، محمد بن عبد الملك الزيات، طريح الثقفي، المعتضد ، مبرمان النحوي، خليد مولى العباس بن محمد، إبراهيم بن المهدي، يحي بن الفضل، أسامة بن منقذ، الطغرائي، أبو محمد الفقعسي، ابن أبي الخرحين ، محمد بن الفضل الجرجرائي، عبد الله الميالج ، ابن صارة الشنتريني، أبو الحسن بن نزار، ابن الفارض، سليمان بن داود القضاعي،

ابن عبد ربه، أبو الفتح البستي، أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصن، صردر، ابن الجوزي، علي بن نصر، عبد الجليل بن وهبون، أبو الغريب النصري، البوصيري.

كان من هدف المعجم ألا يكون ممحضا للاستعمالات اللغوية، وإنما يضم بين دفتيه معلومات حضارية وموسوعية، فهو إلى جانب مادته اللغوية يمثل دائرة معارف تعرِّف ببعض المظاهر والظواهر والأعلام والبلدان والمواقع وغير ذلك، وقد شمل الاستشهاد بالشعر كثيرا من المواد الموسوعية التي سطرت في المعجم.

لن يكون بمقدورنا أن نستعرض كل ما استشهد به من شعر في هذا الجزء من المعجم، فذلك يخرج عن نطاق الزمن المخصص لهذه الورقة، لكن يكفي أن نعطي نماذج من الشواهد أملا في أن نخلص في نهاية البحث إلى ملاحظات عامة وتوصيات بما نراه لتحقيق الهدف، وقد آثرنا أن نقسم ما اخترناه من نماذج شعرية إلى ثلاثة أقسام:

1. الألفاظ العربية.
2. الألفاظ الدخيلة.
3. التعبيرات والتراكيب المجازية.

1- الألفاظ العربية:

الأبد: عرّفه المعجم (27/1) بأنه: «الدائم ، والدهر، وقيل الدهر الطويل الذي ليس بمحدود»، كما ذكر كلاما للجرجاني في «التعريفات»

يبين الفرق بين الأزل والأبد هو أن «الأبد استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل، والأزل استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في زمن الماضي، واستشهد على تعريف الأبد وتنكيره بحديث شريف، وبالمثل «طال الأبد على لبد» يضرب لكل ما قدم، ثم استشهد ببيت أبي تمام في مدحه أبا سعيد الثغري وإشادته بانتصاره:

يـوم بـه أخـذ الإسـلام زينتـه بأسرها واكتسى فخرًا بـه الأبـد

قلت: الاستشهاد ببيت أبي تمام يوحي بعدم وروده عند من هم أقدم منه من الشعراء، مع أنه ورد في الشعر الجاهلي في مطلع قصيدة النابغة الذبياني المشهورة:

يـا دار مـيـة بالعـلـيـاء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد[16]

وبيت النابغة -إلى جانب سبقه- يدل على أن الأبد -عند العرب- زمن غير متناه في الماضي، على عكس ما ذكره الجرجاني، ويعطي المثل الذي ذكره المعجم هذه الدلالة أيضا، وحبذا لو أشار المعجم إلى ذلك، إذ يكون في تعريف الجرجاني تخصيص للمعنى بوصفه مصطلحا من مصطلحات المناطقة وعلماء الكلام.

ومما أخلّ به المعجم في هذه المادة الكنايات التي استعملها الشعراء على سبيل التأبيد، وأكثروا منه ، مثل قول زهير بن أبي سلمى:

رحب الفناء لو أن الناس كلهم حلوا إليه إلى أن ينقضـي الأبـد

وقول حسان:

فاللؤم فيك وفي سمراء ما بقيت وفي سـمـيـة حـتى يـنـفـد الأبد

إن قول العرب «حتى ينفد الأبد» أو «حتى ينقضي الأبد» أو «لا أفعله طول الأبد»، أو «آخر الأبد»، أو غير ذلك من تعبيرات نجدها في أشعار الشعراء العرب وبخاصة في العصر العباسي هي تعبيرات من المفيد أن يضمها المعجم.

الأخية والأواخي: من المعروف أن المعنى الحسي يسبق المعنى المجازي، وأن من شروط جودة التأليف المعجمي أن تبدأ المادة بالمعنى الحسي ثم يذكر بعد ذلك ما طرأ على المعنى من مجاز، لكن «المعجم الكبير» يبدأ -أحيانا- بالمعنى المجازي، دون أن يؤسسه على معنى حسي يسبقه، ففي مادة (أ خ ي) يبدأ المعجم المادة هكذا: «آخى في فلان آخيه: اصطنع معه معروفا، وأسداه إليه. ويقال: آخى فلان في فلان آخية فكفرها». ثم يقول بعده: أخّى فلان للدابة، عمل لها آخية: قال أعرابي: أخِّ لي آخية أربط إليها مهري» ثم يأتي تعريف الآخيّة بعد أكثر من عشرة أسطر وهي: عود يعرض في الحائط، ويصير وسطه كالعورة، أو كالحلقة تشد به الدابة» أو «هو حبل يدفن في الأرض متينا ويبرز منه شبه حلقة تشد إليه الدابة» أو هو «الطنب».

وقد استشهد المعجم على جمع الآخية: «الأواخي» ببيت أبي فراس الحمداني:

وأسعى لأمر عدتي لمناله أواخيٌ من آرائه وأواصر

والاستشهاد ببيت أبي فراس جيد، وبخاصة أن المعجم أورده للتدليل على معنى الحرمة والذمة التي ترعى، لكن قد يوحي الاستشهاد به بعدم

وجود الجمع في الشعر العربي قبل أبي فراس، وقد ورد عند الفرزدق في قوله:

هو الأقرع الخير الذي يبتني أواخيّ مجد ثابت أن يترعا[17]

وترددت الكلمة عند البحتري في عدة أبيات منها قوله:

وما تزال أواخي الملك ثابتة منهم بكل رحيب الباع والبلد[18]

إبّان: جاء في المعجم (56/1): «إبّان كل شيء وقته وحينه الذي يكون فيه»، واستشهد على ذلك برجز من «اللسان» وآخر من «الأساس» مجهولي القائل ثم استشهد ببيت نسبه للمتنبي هو:

واعلم بأن الغيث ليس بنافع للناس ما لم يأت في إبّانه

قلت: نسبة البيت إلى المتنبي غير صحيحة، فالبيت للبحتري من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب مطلعها:

البيت مبني على أركانه والطرف جار في امتداد عنانه[19]

وإنما أخطأ مؤلفو المعجم في نسبة هذا البيت لعدم دقتهم في النقل من «معجم فيشر التاريخي» الذي اعتمدوا عليه -فيما يبدو-، إذ أن فيشر ذكر البيت (ص27) منسوبا للبحتري، نقلا عن شرح ديوان المتنبي للواحدي في الصفحة المرقمة 621 ، فظن مؤلفو المعجم أن البيت للمتنبي.

الأمر الثاني: أنني لم أتبين الهدف من إيراد هذا الشاهد في هذا الموضع، فإن كان القصد توضيح الاستعمال للكلمة فقد وضحه الرجز الذي استشهد به قبل، وإن كان القصد إثبات استعمالها عند المتنبي

فقد تبين لك أنها كانت في الاستعمال قبله بل قبل البحتري صاحب البيت ، إذ وجد عند أبي نواس:

ذهبا يثمر درا كل إبّان وحين

وقد ذكره فيشر في معجمه فلم لم يستفد منه؟

أسف: جاء في المعجم (286): «أسف أسفا وأسافة»: حزن أشد الحزن، ويقال: إنه لأسيف بين الأسافة. قال البهاء زهير:

ورأس مالك وهي الروح قد سلمت لا تأسفَنّ لشيء بعدها ذهبا

واستشهد بعد ذلك على قولهم: «أسف على ما فاته» بالآية الكريمة: (وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف) (يوسف، 84)، وأتبع ذلك بشاهد للنابغة الذبياني هو قوله:

ومعشر أكلوا لحمي بلا ترة ولو ضربت أنوفا منهم رعفوا

لا يأسفون وقد أعذبت ألسنهم ولو يظنون أن أعنى بهم أسفوا

ثم أورد شاهدا للمتنبي يهجو به إسحاق بن كيغلغ:

إن مات مات بلا فقد ولا أسف أو عاش عاش بلا خلق ولا خلق

قلت: الكلمة مألوفة مستعملة في جميع العصور والبيئات العربية وكان يكفي فيها الاستشهاد بالآية الكريمة وبيت النابغة الذبياني، أما الاستشهاد ببيتي المتنبي والبهاء زهير فلست أراهما يزيدان المعنى وضوحا ، ولا يضيفان معنى حقيقيا أو مجازيا للكلمة، ولو اتبعنا هذا المنهج في حشد الشواهد لكل كلمة مألوفة لامتلأت معجماتنا بالشواهد بلا طائل.

الآسون: ذكر المعجم (305/1) جموع آس وهي: أساة و إساة وآسون، واستشهد على الأخير بقول إبراهيم بن المهدي:

ولا يملك الآســون دفعا لمهجة عليها لأشواك المنون رقيـب

قلت: إن كان المقصود من الاستشهاد بالبيت الاستدلال على ورود الجمع في استعمالات الشعراء فإن لذلك شواهد تسبق ابن المهدي، منها قول الحطيئة:

هـم الآســون أمّ الــرأس لـما تواكلهـا الأطبّة والإساء[20]

وقد استشهد به المعجم في موضع آخر من المادة. كما ورد جمع المذكر السالم عند الفرزدق في قوله:

إذا نظر الآسون فيهـا تقبلــت حماليقهم من هول أنيابها الثعل[21]

ألّـه: جـاء في المعـجـم (441/1) «ألّـه فـلانـا اتـخـذه إلاهـا وعـظّمـه»، واستشهد على المعنـى الأخـيـر بقول حافـظ إبراهيم في عمريته يذكر عـمـر وعـلـيـا:

فاذكرهما وترحم كلما ذكــروا أعاظما أُلّهوا في الكون تأليها

قلت: لم نجد هذا المعنى في المعجمات العربية ولا في شعر العرب قبل حافظ، وأظن المعنى الذي قصد إليه حافظ لا يخرج عن معنى العبادة، فهو يقول إذا رأيت بشرا يصرف لهم نوعا من أنواع العبادة ، وهو ضلال بلا شك، فاذكر هذين وترحم عليهما، فلو أن بشرا يعبد لكان هذان أحق بالعبادة.

أما إن ثبت استعمال التأليه بمعنى التعظيم من قبل حافظ أو غيره من

الشعراء، فإن من الواجب الإشارة إلى أنه استعمال خاص بالشاعر الذي ورد في شعره.

الأمل: أورد المعجم (482/1) شاهدا على لفظة «الأمل» بيتا للبارودي هو:

لم يبق لي أمل إلا إليك فلا تقطع رجائي فقد أشفقت من جرحي

وأورد قبله آية قرآنية وبيتا لقطري بن الفجاءة.

قلت: الكلمة مألوفة في التراث اللغوي منذ الجاهلية، وإيراد بيت للبارودي لا يضيف إلى المعنى شيئا جديدا، فإن كان القصد من إيراده تمثيل العصور التي وردت في نصوصها هذه الكلمة فقد كان الأولى البدء بالعصر الجاهلي فقد جاءت في شعر عبيد بن الأبرص:

فكل ذي نعمة مخلوسها وكل ذي أمل مكذوب[22]

ووردت عند الراعي في العصر الإسلامي في قوله:

أملت خيرك هل يأتي مواعده فالآن قصر عن تلقائك الأمل[23]

وقد تعدَّدَ ورود الكلمة عند الشعراء العباسيين: أبي تمام وأبي العتاهية والبحتري وابن المعتز، فشاعت في أشعارهم كما شاعت عند أبي العلاء المعري، فإن كان القصد تمثيل عصور الشعر العربي فإن المنتظر من المعجم أن يورد شواهد من هذه العصور، أما الاستشهاد ببيتي قطري والبارودي فإن ذلك يوحي بعدم ورود الكلمة في الشعر العربي قبل قطري، أو بينه وبين البارودي، والواقع أن الكلمة مألوفة، ولا تستحق الاستشهاد عليها إذ ليس فيها غموض يوضحه

الاستشهاد، ولا استعمال غريب تفرد به أحد الشعراء، ولا تطور في الدلالة لحق الكلمةُ عبر العصور.

ويلحق بهذه الكلمة فعل الأمر «تأمّل» فقد استشهد عليه المعجم ببيت للبارودي:

تأمّل هـل تـرى أثـرا فإنـي أرى الآثار تـذهـب كالـرمـاد

على معنى «تثبت في الأمر والنظر» (481/1) واستشهد قبله ببيت زهير:

تأمل خليلي هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرهم

قلت: لم أجد فائدة أو وظيفة معجمية لبيت البارودي تختلف عما يدل عليه بيت زهير، فإن كان القصد تاريخيا فإن الشعر العربي على امتداد عصوره مليء بالأمثلة التي كان يجب أن يختار منها ما يمثل تلك العصور.

أنين: استشهد المعجم (570/1) على لفظة الأنين ببيت عمر بن أبي ربيعة:

ومجلس أصحابي كـأن أنينهم أنين مكاك فارقـت بلدا خصبا

وقول البارودي:

وكيـف تـواريـه وهـــذا أنينُه يدل عليه السمع من كل جانب

قلت: ليس في بيت البارودي ما يعد إضافة إلى العمل المعجمي، إلاَّ أن يكون من قبيل الزخرف الذي يثقل المعجم.

يؤوده: استشهد المعجم (599/1) على هذه الكلمة بالآية الكريمة

﴿وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما﴾ (البقرة: 255)، وبأبيات للحارث بن خالد المخزومي، ثم أورد بيتا للبارودي هو قوله:

وحسب الفتى من رأيه خير صاحب يؤازره في كل خطب يؤوده

قلت: الكلمة مألوفة في الشعر العربي ولا أرى مزية للاستشهاد ببيت البارودي عليها ما دامت لا تمثل عصره، ولم تأت في سياق مختلف عما أتت فيه عند الشعراء قبله، كما في قول عمر بن أبي ربيعة:

وتنمو فتصرعها عجيزتها مشي الضعيف يؤوده البهر[24]

وقول بشار:

خذ من صديقك غير متعبه إنّ الجواد يؤوده تعبه[25]

أُوليّات: استشهد المعجم على جمع (أولى) على (أُولَيات) يقول حافظ إبراهيم:

إنّ مجدي في الأوليات عظيم من له مثل أولياتي ومجدي

قلت: هذا الاستشهاد لا غبار عليه، إذ يبدو أن استعمال جمع المؤنث السالم لكلمة (الأولى) -وهو قياسي- قليل جدا في الشعر العربي القديم، ولم أجده -قبل حافظ- سوى عند ابن حيُّوس (ت 473هـ) في قوله:

همام حوى في أُوليات شبابه مآثر أعيت كلّ كهل ويافع[26]

2 – الألفاظ الدخيلة:

الآس: شجر، استشهد عليه (12/1) بقول أبي تمام:

نور العرارة نوره ونسيمه نشر الخزامى في اخضرار الآس

قلت: ورد اللفظ في الشعر المحتج به قبل أبي تمام، قال ابن دريد في الجمهرة: «أحسبه دخيلا، على أنَّ العرب قد تكلمت به، وجاء في الشعر الفصيح»[27]، ولم يورد ابن دريد عليه شاهدًا من الشعر، وقد ورد في شعر رؤبة:

تراه منصــورًا عليه الأرغــاس　　يخضر ما اخضر الألاء والآس[28]

الإبريز: الذهب الخالص، استشهد المعجم عليه ببيت الطغرائي:

بينا ترى الذهب الإبريز مطّرحا　　في الأرض إذ صار إكليلا على ملك

قلت: الاستشهاد ببيت للطغرائي -وهو من شعراء القرن السادس الهجري- على هذه اللفظة يوحي بعدم ورودها في الشعر القديم قبله، وهو أمر يتنافى مع كون المعجم شاملا للغة في جميع عصورها، فقد وردت في شعر لأبي تمام في قوله:

بالأسيل الغطريف والذهب الإبــريز فينا والأروع الغرنيق[29]

وفي شعر البحتري:

وقـد هذبتك النّائبات وربـمـا　　صفا الذهب الإبريز قبلك بالسّبك[30]

كما وردت في شعر الشريف الرَّضي (ت 406هـ) وشعر صفي الدين الحلي (ت 750هـ)

الأترُج: استشهد المعجم عليه (1/73) بقول المعتز:

يــا حبذا أترجّـــة　　تحدث في النفس الطّرب

كـأنـهــا كافــورة　　لـها غشاء من ذهــب

قلت: وردت لفظة الأترجة في الشعر الجاهلي في بيت لعلقمة بن عبدة هو قوله:

يحملن أترجّة نضخ العبير بها كأن تَطيابها في الأنف مشموم[31]

وذكره ابن قتيبة في «أدب الكاتب» ضمن ما يهمز من الأسماء التي يبدل بها العوام همزتها أو تسقطها[32]. ولم يشر إلى ذلك في المعجم.

3 – التعبيرات والتراكيب المجازية:

من محاسن هذا المعجم اشتماله على عدد غير قليل من التعبيرات والتراكيب المجازية التي وردت في النثر أو الشعر، غير أن مما يلاحظ أن معظم هذه النماذج قد بُثّتْ في المعجم دون مراعاة لسياقها التاريخي، وأحيانا دون تنبيه على وظيفتها المجازية، وسنعرض لبعض هذه النماذج مما يتصل منها بموضوع الاستشهاد بشعر المولدين أو المعاصرين.

أديم الأرض: قال في المعجم الكبير (153/1): «والأديم من كل شيءٍ ظاهره، يقال أديم الأرض» ثم أورد بيت الأعشى:

يومًا تراها كأردية الخمـــــس ويوما أديمها نغلا

كما أورد بيت المعري:

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

قلت: القول بأن الأديم من كل شيءٍ ظاهره لم أجد له سندًا في معجماتنا العربية، وقد صرح علماؤنا القدماء بأنَّ تعبير (أديم الأرض) استعمل على سبيل المجاز، جاء في (التاج): «ومن المجاز الأديم من الضحى أوله، حكى اللحياني: جئتك أديم الضحى، أي عند ارتفاع الضحى، ومن المجاز الأديم من السماء والأرض ما ظهر منهما، وفي

الصحاح: «وربما سمي وجه الأرض أديمًا»[33] ثم أورد بيت الأعشى السابق.

وقال الثعالبي في «المضاف والمنسوب»: «(أديم الأرض) يدخل من باب الاستعارة، كما يقال أديم السماء، وأديم الأرض لما حسن» وذكر بيت الأعشى ثم قال: «وفي استعارة الأديم لغير الأرض يقول بعض الكتاب: «كثرة العتاب تنغل أديم المودة»[34]

قلت: فأنت ترى أن إطلاق القول بأن أديم كلّ شيءٍ ظاهره ليس صحيحًا، وأن ورود الأديم مضافا إلى الأرض أوالسماء هو استعمال مجازي قد لا يرد في غيرهما بهذا المعنى، فباب المجاز واسع ومما لا شك فيه أنّ (أديم الضحى) ليس ظاهره وإنّما هو أوله و(أديم المودة) في قول الكاتب لا يعني ظاهر المودة بقدر ما يعني وجودها.

والأمر الثاني: أن الاستشهاد ببيت أبي العلاء لم يضف إلى الصناعة المعجمية شيئا، فالتركيب ليس من ابتكارات المعري، فإلى جانب سبق الأعشى له نجد الاستعمال أيضًا عند الشعراء العباسيين كأبي نواس في قوله:

قد أسحب الزق يأباني وأكرهه حتى له في أديم الأرض أخدود[35]

إليك عني: جاء في المعجم الكبير (452/1): «ويقال إليك عني في طلب التنحّي» وذكر حديثا في استعمالها، ثم أورد شاهدًا للمتنبي هو قوله:

إليك فإني لست ممن إذا اتقى عضاض الأفاعي نام فوق العقارب

قلت: استعمال اسم الفعل هذا مألوف في عصور الشعر العربي المختلفة، والاقتصار على شاهد للمتنبي قد يوحي - من الناحية التاريخية- بعدم وروده عند غيره.

وقد ورد الاستعمال في شعر الجاهلية في قول النابغة:

ألكنـي يا عيين إليـك قـولا سأهديـه إليك..إليك عنـي[36]

وفي شعر المجنون:

إليك عني (إني) هائم وصب أما ترى الجسم قد أودى به العطب[37]

وإن كان القصد من إيراده التمثيل على طريقة الاستعمال، فإن ما ورد في بيت المتنبي يمثل صورة واحدة من صور استعمال هذا التعبير في الشعر العربي. فقد تفنن الشعراء في صياغته، فتارة يأتون به كما ورد في الأبيات السابقة، وتارة يدخلون كلمة بين «إليك» و«عني»، كقول العباس بن الأحنف:

فقلت لها إليك -هواك- عني فإني عن هواك لذو اشتغال[38]

وتارة يقدمون «عني» كما في قول أبي تمام:

عني إليك فإني عنك في شغل لي منه يوم يبكي مهجتي وغد[39]

وأحيانا يكررون كلمة «إليك» كما في قول أبي العتاهية في أرجوزته ذات الأمثال:

إليك يا دنيـا إليك عـنـي مـاذا تريدين، تـخـلـي مـنـي[40]

شامخ الأنف: جاء في المعجم الكبير (557/1) «ويقال شمخ فلان بأنفه: رفع رأسه متكبرا، وهو شامخ الأنف: مترفع معتز بنفسه» ثم استشهد ببيت للبهاء زهير:

كامل الظروف أديب شامخ الأنف أشمه

قلت: التعبير مألوف في الشعر العربي، وقد ورد فيه قبل البهاء زهير بقرون، في شعر عبيد بن الأبرص:

في روابي عُدْملي شامخ الأنف فيه إرث مجد وجمال[41]

وحبذا لو كان التمثيل من شعر البهاء يمثل استعمالا نادرا أو متصلا بلغة عصره فذلك أجدر بالتمثيل.

أنف البرد: جاء في المعجم الكبير(1/559) «وأنف البرد أوله وأشده»، قال أبوالعلاء المعري:

متى ذنّ أنف البرد سرتم فليته عقيب الثنائي كان عوقب بالجدع

قلت: مراعاة للجانب التاريخي لاستعمال هذا التركيب نشير إلى أن أبا العلاء لم يكن أول من استعمله فقد سبقه إليه ذو الرمة في قوله:

إذا شم أنف البرد ألحق بطنه مراس الأوابي وامتحان الكوائم[42]

ومما يستدرك على «المعجم» في هذا الصدد أن الأنف قد ورد عند العرب في استعارات كثيرة، كان من المستحسن تضمين معظمها في هذا المعجم الموسوعي الكبير، من ذلك قول الرسول ﷺ: «جدع الحلال أنف الغيرة»، وذكر الثعالبي في (ثمار القلوب) أن استعارة الأنف للكرم من ابتكارات بشار بن برد في قوله:

ألا أيها السائلي جاهلا ليخبرني أنا أنف الكرم

وقوله لأبي عمرو بن العلاء:

أنت أنف الجود إن زايلته عطس الجود بأنف مصطلم

قال الثعالبي: «ثم تبعه ابن الرومي وزاد عليه وأحسن في قوله:

لـو كـنـت عين المجد سوادها أو كنت أنف الجود كنت المارناب

وقد أورد الثعالبي جملة من هذه الاستعارات، مشيرا إلى أن الناس قد تصرفوا في استعارة الأنف بين الإصابة والمقاربة ...[43]

3 - نتائج البحث

يتضح من دراستنا لشواهد شعر المولدين والمعاصرين في المعجم الكبير ما يأتي:

1 ـ لم يوضح المعجم المعايير التي ارتضاها مؤلفوه لاختيار الشواهد بصفة عامة، والغرض من إيرادها في المعجم، والحدود التي التزموها في ذلك.

2 ـ ورد معجم هذه الشواهد للتدليل على ألفاظ أو تراكيب كانت قد وردت عند الشعراء المحتج بشعرهم. وذلك قد يوحي بعدم ورود المواد اللغوية المستشهد لها عند أولئك الشعراء القدماء، مما يتعارض مع الهدف التاريخي للمعجم.

3 ـ لا تمثل معظم الشواهد المنسوبة إلى الشعراء المولدين والمعاصرين عصورهم، فليس في هذه الشواهد ما يعبر عن ألفاظ أو تراكيب تنتمي إلى تلك العصور، أو ابتكارات لهؤلاء الشعراء، وبهذا يمكن أن يقال إن المعجم فيما يخص الشواهد كان محافظا إلى حد بعيد على الرغم من أنه أورد شواهد كثيرة للمولدين والمعاصرين. وهذا يتعارض مع قول رئيس

مجمع اللغة العربية في مقدمته للمعجم: «وينبغي أن يعبر المعجم الحديث عن عصور اللغة جميعًا، وأن يستشهد فيه بالقديم والحديث على السواء». من ذلك مثلا أن المعجم أورد كلمة الأزل ذاكرا قول ابن فارس في عدم قياسيتها وقول الزمخشري إن اللفظ مصنوع، ليس من كلام العرب وكأنهم نظروا في ذلك إلى اللفظ (لم أزل)، لكن المعجم لم يورد شاهدا عليها سواء من النثر أو الشعر منسوبا إلى من استعملها من العلماء أو الأدباء وقد وردت النسبة إليها عند أبي العلاء في شعره وذلك في قوله:

لقد فرعتنا قدرة أزلية فعشنا وعدنا راجعين إلى القس(44)

وقوله

وصفت لقوم رحمة أزلية ولم تدركي بالقول أن تصفيها(45)

وقد وفق المعجم في الاستشهاد على لفظة (الأستاذ) ببيت للمتنبي، ولكن الكلمة وردت في الشعر المنسوب للإمام الشافعي في قوله:

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان(46)

وهنالك استعمالات كثيرة للشعراء المولدين وتصرف في بعض الألفاظ أو التعبيرات قد تكون سمعت من العرب، ولكنهم قاسوها على كلام العرب فلم يضمها المعجم فمن استعمالات بشار وابتكاراته إطلاقه كلمة «الإطار» على حوض الماء في قوله:

وكنت إذا ظمئت إلى قراح شركت الكلب في ذاك الإطار(47)

4 – لم يخدم الجانب التاريخي للألفاظ والتراكيب بالقدر الكافي، فقد استفاد مؤلفو المعجم من القطعة التي صنعت من جذاذات معجم فيشر، لكن لم تبذل جهود واضحة للتقدم خطوات نحو هذا الهدف، على الرغم من أن الوسائل المتاحة الآن خير منها عندما كتب فيشر جذاذاته.

5 – أكثر المعجم من الاستشهاد بالشعر المولد أو المعاصر على ألفاظ مألوفة في جميع عصور العربية، دون فائدة حقيقة للأبيات المستشهد بها، فهي لا تؤرخ للفظة ولا توضح استعمالها في سياق معين، ولا تدل على تغير حقيقي أو مجازي طرأ عليها، مما يوحي بأن الشاهد مقصود لذاته، مع أن المفترض أن يكون للشاهد وظيفة معجمية محددة.

وأخيرا فإن المعجم الكبير عمل ضخم نهض به -مشكورا- مجمع اللغة العربية في القاهرة، وأحرى بمثل هذا العمل الكبير أن يردد النظر فيه بين حين وآخر، وأن يستفاد في إعداده من المعطيات الحديثة، وبخاصة ما يعين منها على توثيق الألفاظ والتراتيب وربطها بعصورها التاريخية، بعد أن أصبح الوصول إلى ذلك أسهل من ذي قبل.

الهوامش :

1 ـ مجمع اللغة العربية، **المعجم الكبير**، القاهرة، مطبعة دار الكتاب، 1980م، 1/و.

2 ـ نفسه.

3 ـ البغدادي (عبد القادر)، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1387/1 هـ/1967م.1/6.

4 ـ نفسه.

5 ـ الزمخشري (جار الله)، **الكشاف**، القاهرة، مط. مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1385 هـ/1966م، 220/1- 221.

6 ـ الجرجاني (السيد علي بن محمد)، حاشية على الكشاف، على هامش الطبعة السابقة من الكشاف، 221/1.

7 ـ انظر في ذلك: كتاب **«الزبيدي في كتابه تاج العروس»** تأليف هاشم طه شلاش، ط1, بغداد، دار الكتاب للطباعة، 1401هـ/1981م، ص 442 وما بعدها.

8 ـ انظر: على سبيل المثال **اللسان** (قرط) و(قوم) و(رأى).

9 ـ الكشاف، مصدر سابق ص22.

10 ـ ابن العماد الحنبلي،، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، 1/14 (حوادث سنة 354هـ)

11 ـ السخاوي (علي بن محمد)، **سفير السعادة وسفير الإفادة**، تحقيق محمد أحمد الدالي، ط 2, بيروت، دار صادر 1415هـ/1995م ، 433/2.

12 ـ ابن بري (عبد الله)، **التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح**، تحقيق مصطفى حجازي، ط1, القاهرة، مجمع اللغة العربية، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980م، 280/1.

13 ـ نفسه، 7/1.

14 ـ **المعجم الكبير**، المقدمة، ص و.

15 ـ **المعجم الكبير**، ص ص

16 ـ **ديوان النابغة الذبياني**، صنعه ابن السكيت، تحقيق شكري فيصل، دمشق، دار الفكر [1968م]، ص2.

17 ـ **ديوان الفرزدق**، شرح مجيد طراد، ط1 بيروت، دار الكتاب العربي 1412هـ/ 1992م، 25/2.

18 ـ **ديوان البحتري**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط3, القاهرة: دار المعارف د.ت، 660/2.

19 ـ ديوانه السابق، 2262/4.

20 ـ **ديوان الحطيئة،** تحقيق نعمان طه، ط1, القاهرة، مكتبة الخانجي، 1407هـ/ 1987م، ص87.

21 ـ ديوانه السابق، ص208.

22 ـ **ديوان عبيد بن الأبرص،** تحقيق حسين نصار، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1377هـ/1957م ص13.

23 ـ **ديوان الراعي النميري،** تحقيق ر. فايبرت، بيروت، 1401هـ/1980م، ص198.

24 ـ **ديوان عمر أبي ربيعة،** نشر محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1371هـ/ 1952م، ص150.

25 ـ **ديوان بشار بن برد،** تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1986م، 276/1.

26 ـ **ديوان ابن حبوس،** تحقيق خليل مردم بك، بيروت، دار صادر، 1404هـ/1984م، 329/1.

27 ـ ابن دريد، **الجمهرة في اللغة،** ط مصورة، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت، 17/1.

28 ـ **ديوان رؤبة بن العجاج** (ضمن مجموع أشعار العرب)، تحقيق وليم بن الورد البروسي، ليبزج، 1903م.

29 ـ **ديوان أبي تمام،** تحقيق محمد عبده عزام، ط4, القاهرة، دار المعارف، د.ت، 433/2.

30 ـ **ديوان البحتري،** تحقيق حسن كامل الصيرفي 31, القاهرة، دار المعارف، د.ت، 1564/3.

31 ـ **ديوان علقمة الفحل،** تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، حلب، دار الكتاب العربي، سنة 1389هـ/1969م، ص51.

32 ـ ابن قتية، عبد الله بن مسلم، **أدب الكاتب،** تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4, القاهرة، مط السعادة، 1382هـ/1963م. ص285.

33 ـ الزبيدي، محمد مرتضى، **تاج العروس من جواهر القاموس،** (أدم).

34 ـ الثعالبي (عبد الملك)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار نهضة مصر، 1384هـ/ 1965م، ص515.

35 ـ ديوان أبي نواس (الحسن بن هانئ الحكمي)، تحقيق إي، النشرات الإسلامية، يسبادن، 1408هـ/ 1988م، 113/3.

36 ـ ديوان النابغة، مرجع سابق، ص197.

37 ـ ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، مكتبة مصر، د.ت، ص41. ورد البيت بدون كلمة «إني» فبدا مكسورا، وقد أضفناها كي يستقيم الوزن.

38 ـ ديوان العباس بن الأخف، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1402هـ/ 1982م، ص245.

39 ـ ديوان أبي تمام، مرجع سابق، 4/ 75.

40 ـ أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، تحقيق شكري فيصل، دمشق، مكتبة دار الملاح، د.ت، ص455.

41 ـ ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق نصار حسين، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1377هـ/ 1957م، ص118.

42 ـ ديوان ذي الرمة، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، دمشق، مجمع اللغة العربية، 1392هـ/ 1972م، 766/3.

43 ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مرجع سابق، ص330.

44 ـ المعري أبو العلاء، اللزوميات، تحققي عمر الطباع، بيروت، دار الأرقم، د.ت، 28/2.

45 ـ نفسه، 2/ 435.

46 ـ ديوانه، جمع محمد عفيف الزعبي، حمص- مكتبة المعرفة، جدة- دار العلم، 1392هـ/ 1972م، ص81.

47 ـ ديوانه، مرجع سابق، 3/ 209.